

روضة الحكايات !!
(٥)

لَمَّ الْعَبَّ فِي طَفُولَتِي !!

الدكتور
محمد عمر الحاجي



الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا

ص.ب. ٣١٤٢٦ - هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢

e-mail: almaktabi@mail.sy


للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

اعتراضٌ في محله!!

بعد انتهاء كلمة الطالب (سليمان) في القاعة
التابعة لمعهد تحفيظ القرآن الكريم ، وقف مدير
المعهد ، وأثنى على المُحاضرة ، وقال في آخر
مداخلته :

لقد تعرّفنا من خلال المُحاضرة على أحدِ أعلام
الأئمة (ابن الجوزي) ، وحبّذا لو يقوم الطلابُ
والأساتذة بتقديم المزيد من المُحاضرات ، ليتكوّن
لدينا معلوماتٌ وافية عن رموزنا التاريخية ،
مصداق ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] .

ورفع الأستاذ (نور الدين) يده ، واستأذن

المديرَ وقال : لقد استمعنا إلى عِدَّةِ محاضراتٍ
قيِّمةٍ ، وأشهدُ اللهَ أني - وأنا أستاذُ مادةِ التاريخ -
استمعتُ إلى بعضِ الأمورِ المتعلقةِ بتلكَ الرُّموزِ
التاريخيةِ وكأني قد سمعتُ بها لأولِ مرةٍ... ، ولكن
لديّ اعتراضٌ ، وأرجو أن تتقبَّلوه من أخٍ لكم .

فقال المدير : هات ما عندك يا أبا زَيْنِ
العابدين ، فقد عوَّدتْنَا تقديمَ كلِّ ما فيه فائدةٌ
للجميع...

وابتسمَ الأستاذُ ثم قال : وأما مُلخَّصُ اعتراضِي
على مَسيرةِ المُحاضراتِ في هذا المَعهدِ ، فهو :
لماذا كلُّ الشخصياتِ التي تمَّ الحديثُ عنها تمَّ
اختيارها من المَشْرِقِ العربي ، ولم تُكُنْ أيَّةُ واحدةٍ
منها من المَغْرِبِ العربي؟!!

وتَمَّتَ المديرُ قائلاً :

حقاً : إنَّ (ابنَ الجوزي) و (القاسمَ بنَ سلام)

و (العز بن عبد السلام) و (الليث بن سعد) كلهم
من المشرق... ، ثم رَفَعَ المُديرُ صوتَه قائلاً : ولذلك
ستكونُ المُحاضرةُ القادمةُ عن واحدٍ من بلاد
المغربِ ، فمنْ سيتقدَّمُ لذلكِ العملِ؟ واقترحَ الأستاذُ
(نور الدين) على إدارةِ المَعهدِ أن يقومَ بذلكِ
العَمَلِ الطالبُ (حسيب) ، وذلك لتفوقه في
مجالاتِ البحثِ والدراسة ، ولأنَّ أخواله وأمه
يُنحِدرونَ من إحدى بلادِ المغربِ...

... ونوديَ على (حسيب) ، ولما جَلَسَ في
عُرفةِ الإدارةِ ، وبينَ الطلابِ والأساتذةِ ، قدَّمَ له
المُديرُ اقتراحَ أستاذِ التاريخِ.... فوافقَ على
الفور!!

* * *

لولا عياض ما عُرف المغرب!!

واعْتَكَفَ (حسيب) في قاعةِ المكتبةِ العامّةِ ،
واستغرقَ في البحثِ والتفتيشِ ، وسَجَّلَ كثيراً من
النقاطِ المُضيئةِ ، وفي اليومِ الأخيرِ من الأسبوعِ
قامَ بعمليةِ غربلةٍ وتمحيصٍ لكلِّ ما كُتِبَ عن
القاضي عياض ، وحازَ في اختيارِ عنوانٍ مثيرٍ
وجذابٍ .

ولما أُطْلِعَ أستاذه (نور الدين) على ما كُتِبَ ،
اختارَ له عنواناً مُثيراً ، هو : (لولا عياضُ ما عُرف
المغربُ) .

و... لَمَّا كانَ مَوْعدُ المُحاضرةِ ، جَلَسَ
(حسيب) إلى جوارِ مديرِ المَعهدِ ، وابتدأَ حديثه

بقول الله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

ثم خاطبَ الحاضرينَ قائلاً : أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ!
سيدورُ حديثُنَا هذهِ الليلةَ حَوْلَ تَرْجَمَةِ حَيَاةِ أَشْهَرِ
علماءِ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَلَا غَرَابَةَ فِي
ذَلِكَ ، فَقَدْ قِيلَ : لَوْلَا عِيَاضٌ مَا عُرِفَ الْمَغْرِبُ !!

وَقَدْ جَمَعْتُ لَكُمْ بَعْضَ الْمَعْلُومَاتِ مِنْ كِتَابِ
التَّرَاجِمِ وَالسِّيَرِ وَالتَّارِيخِ ، أَلْخَصُّهَا بِمَا يَلِي :

فِي مَضِيقِ جَبَلِ طَارِقٍ ، وَعِنْدَ التَّقَاءِ الْبَحْرِ
الْأَبْيَضِ الْمَتَوَسِّطِ مَعَ الْمَحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ ، تَقَعُ
مَدِينَةُ (سَبْتَةَ) ، وَفِي سَنَةِ (٤٧٦ هـ) وُلِدَ
القَاضِي عِيَاضُ بْنُ مُوسَى الْيَحْصَبِيُّ ، وَشَاءَ اللَّهُ
سَبْحَانَهُ أَنْ تَكُونَ أَسْرَتُهُ أُسْرَةً كَثِيرَةً الْأَمْجَادِ ،
مَعْرُوفَةً بِالْعِلْمِ وَالصَّلَاحِ ، وَالْجِهَادِ وَالصَّدَقَاتِ .

وَلِذَلِكَ نَشَأُ (عِيَاضُ) بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُحَقِّقِينَ ،

وأقبل على حِفْظِ كتابِ الله منذ الصَّغْرِ ، وكان كثيراً ما يلتقي بالعلماءِ وطلابِ العلم ، القادمين إلى (سبتة) أو المارِّين فيها ، فيستفيدُ ويُفيدُ .

ثم اتَّسعتْ نشاطاته ، فاهتمَّ بعلومِ الحديثِ الشريفِ ، وبِعِلْمِ الأصولِ ، وتمَّذَّهَبَ بالمذهبِ الفقهيِّ المالِكيِّ ، وعكَّفَ على دراسةِ علومِ اللُّغةِ العربيَّةِ ، و...

وبقي يُجاهدُ في سبيلِ تحصيلِ العلومِ المُفيدَةِ ، فاستفادَ وأفادَ ، لذلك كان إذا تذكَّرَ عهدَ الطفولةِ قال :

إنني لم أعرف الطفولةَ ، فلا أنا لهوْتُ فيها ، ولا أنا لَعِبْتُ ، إنما منذ بدايات حياتي وأنا في طلبِ العلمِ !!

* * *

عطاءات بلا حدود

تابع (حسيب) الحكاية قائلاً :

ولعلّ في تسمية القاضي باسمه (عطاء) من الحكيم الشيء الكثير ، فهو بحقّ عطاءً كلّه :

ففي مجالات التدريس كان له باعٌ طويلٌ ، فتارةً كان يُدرّس الحديث الشريف ، وتارةً يُخصّصُ بعضَ الدروسِ للفقهِ والأصول... ، وكان في مجلسه من الفوائد الشيء الكثيرُ ، وكان منهجياً في التدريس ، جامعاً بين المُتعةِ والفائدة... أمّا في مجالات القضاء ، فقد بذلَ كلَّ ما في وسعه لإقامة العدلِ وتبديدِ الظلمِ ، حتى إنه بقي في ذلك المنصبِ زهاءَ خمسَ عشرة سنة .

وَعَمِلَ أَيْضاً فِي مَجَالَاتِ الْخُطَابَةِ ، وَالْإِفْتَاءِ ،
وَالشُّورَى ، وَعُرِفَ عَنْهُ الْجَهْرُ بِالْحَقِّ وَعَدَمُ الْخَوْفِ
إِلَّا مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

أَمَّا عَطَاءُ فَهُوَ فِي مَجَالِ التَّأْلِيفِ فَذَكَ أَمْرٌ كَبِيرٌ
كَبِيرٌ ، فَقَدْ اِمْتَاَزَتْ تَأْلِيفَاتُهُ بِتَحَرِّيِ الصَّوَابِ ، وَذِكْرِ
الْأَسَانِيدِ ، وَالْأَمَانَةِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَالْمَوْضُوعِيَّةِ ،
وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَعَدَمِ التَّعَصُّبِ ، وَحُسْنِ
الْأَدَبِ مَعَ الْآخَرِينَ ، وَ...

وَمِنْ أَهْمِّهَا : (إِكْمَالُ الْمَعْلَمِ بِفَوَائِدِ صَحِيحِ
مُسْلِمٍ) وَ (اِخْتِصَارُ كِتَابِ شَرْفِ الْمُصْطَفَى ﷺ)
(وَمَشَارِقُ الْأَنْوَارِ عَلَى صِحَاحِ الْأَثَارِ) وَ (تَرْتِيبُ
الْمَدَارِكِ وَتَقْرِيْبِ الْمَسَالِكِ لِمَعْرِفَةِ أَعْلَامِ مَذْهَبِ
مَالِكٍ) وَ (الْإِعْلَامُ بِحُدُودِ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ)
(وَالْمَقَاصِدُ الْحِسَانُ فِيمَا يَلْزَمُ الْإِنْسَانَ)
(وَالسِّيْفُ الْمَسْلُوعُ عَلَى مَنْ سَبَّ أَصْحَابَ

الرسول ﷺ) و (الجامعُ في التاريخ) وغيرها...

لكنَّ أشهرَ كتبه وأعظمها قدراً هو كتابه (الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ) وهو كتابٌ في السيرة النبوية ، لكنه امتازَ عن غيره من كتبِ السيرةِ بأنه ضمَّنه بعضَ جوانبِ العقيدةِ ، وأكثرَ فيه من الحججِ القويةِ ، وكتبه بأسلوبٍ سهلٍ وبديعٍ ، ولذلك أكثرَ العلماءُ من تدرسيه وشرِّحه ،
و...

ولما عُوتِبَ القاضي عياض على كثرةِ إعادةِ تدريسِ (الشفاء) وكثرةِ الاستشهادِ ببعضِ ما جاء فيه ، قال في الجواب :

فقالوا أراك تُحبُّ (الشفا)

وتُخبِرُ فيه عن المصطفى

فقلتُ : لأنني عليلاً الفؤادِ

وكلُّ عليلاً يُحبُّ الشفا

فأكرم بالقاضي في ذاك... وفي كتبه
وعطاءاته.. رَحِمَهُ اللهُ...

* * *

كان إماماً في علوم كثيرة!!

وتابع (حسيب) الحكاية بالقول :

ومن أهم الصفات التي اتَّصَفَ بها القاضي عياضُ أنه كان رجلاً مَوْسُوعِيّاً ، أي كان على معرفةٍ بأنواع العلومِ المختلفةِ ، وَرَحِمَ اللهُ الحافظَ ابنَ كثيرٍ عندما قال فيه :

(... كان إماماً في علومٍ كثيرةٍ ، كالفقه ، واللغة ، والحديث ، والأدب ، وأيامِ الناس) ... ، وَرَحِمَ اللهُ العلامةَ الحَفَاجي عندما مدح القاضي (عياض) بقوله :

هو الإمامُ الذي سارت مآثرُهُ
في الشَّرْقِ والغَرْبِ سَيْرَ الشمسِ والقمرِ

وَكَمْ لَهُ مِنْ تَأْلِيفٍ قَدْ اشْتَهَرَتْ

بِكُلِّ قَطْرٍ ، فَسَلْ تُنَبِّئَكَ بِالْخَبْرِ

إضافة إلى ميزة أخرى امتاز بها ، وهي محبته
للعلم وأهله ، ولذلك كان يقول عن نفسه - حتى
بعد شهرته وذُيوع صيته - : أنا طالب علم!!

علماً أنه كان رمزاً من رموز العلم والفقه
والخطابة والأصول و... ، وحتى في مجالات
الشعر كان له باع طويل ، من ذلك تلك القصيدة
الشهيرة والتي مدح فيها النبي ﷺ ، ومن أبياتها
الرائعة :

يا دارَ خيرِ المرسلينَ ومنْ بهِ

هُدِي الأنامُ وحُصَّ بالآياتِ

عندي لأجلِكَ لوعةٌ وصباغةٌ

وتشوّقٌ متوقِّد الجَمَراتِ

وعليَّ عهدٌ إن ملأتُ محاجري
من تلکم الجُدرانِ والعَرَصاتِ
لأعقرنَّ مَضُونِ شَيْبِي بينها
من كَثْرَةِ التَّقْبِيلِ والرَّشْفَاتِ
لولا العَوادي والأعادي زُرْتُها
أبدأ ولو سَحَباً على الوَجَنَاتِ
لكن سأهدي من حَفِيلِ تحيَّتي
لقطين تلك الدارِ والحُجراتِ
أزكى من المسكِ المُفتَقِ نَفْحَةً
تَغْشاه بالآصالِ والبَكَراتِ
وتَخُصُّه بزواكِي الصَّلَواتِ
ونواصيِّ التَّسْلِيمِ والبَرَكاتِ

* * *

... ومات مسموماً!!

وكالعادة ، كَثُرَ حُسَاؤُهُ وَمُبْغِضُوهُ ، ووصلتِ
المسألةُ إلى مُحَاوَلَةِ قَتْلِهِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ!

وقد تَحَقَّقَ ذلك عندما أَمَرَ الأميرُ ، فُدِّسَ له
السُّمُّ ، فماتَ شهيداً ، وكان ذلك يومَ الجمعة سنة
(٥٤٤ هـ) ، ودُفِنَ في مدينة مَرَاكُش بِالْمَغْرِبِ ...

رَحِمَ اللهُ عَالَمَ الْمَغْرِبِ ، وَمُحَدِّثَهَا ، وَفَقِيهَا ،
والحمد لله رب العالمين ...

* * *